المدرسة تربي المرأة

والمرأة تربي الامة (١)

فعل المدرسة

هنا في هذا المكان منبت الامالي والرجاء . وهنا في هذه البيئة بيئة العلم والتربية — بشير الخير ومطلع الامل

الامل الذي نستشفهُ من وراء حجب الدهر والايام . لانا نرى هنا فعل المدرسة وجناها الطيب الشهي . وبالمدرسة وحدها ترقى وتقوى . وبالمدرسة وحدها قوي كل ضعيف وبدونها ضعف كل قوي « وليس سواء عالم وجهول »

على ان امتنا يكبر ويعظم بمدارس البنات اللاتي اذا تمدن العلم وقرنَ العلم بالتربية الصحيحة والادب الناصع . كن غداً للمعلمات المربيات وكان كل بيت من بيوتهن المدرسة . وكن فيه المدرسات . فتخرج كل مدرسة . بل كل بيت للامة رجالاً عاملين صالحين . ونساء عاملات صالحات مربيات . وهكذا الى ان تعم التربية والتعليم

والعلم في الامم كتيار الكهرباء اذا اصاب ضرقاً لا يثبث ان يمتد الى سائر الاطراف

فلا يخطىء من يقف في هذا المكان المبارك حيث تربى المرأة وتعلم وتهذب . قائلاً مردداً « المدرسة تربي المرأة . والمرأة تربي الامة »

الا ان هذا الشرق الذي كان بالامس الغائب في طيات الدهر معلم الامم وينبوع الحضارة والمدنية . بدا انحطاطهُ يوم انزل المرأة من مقامها السامي الى مصاف الآنية المنزلية . فحرمها العلم وحرمها التهذيب وحرمها التربية العالية فحرم نصف المربية . ولم تسر امتهُ منذ ذاك الحين عرجاء تحمل برجل واحدة بل قعدت في مكانها عن اللحاق بسواها ولسان حالها ينشد

تقدمني الناس كان شوطهم وراء خطوتي اذا امشي على مهل

(١) التيت في مدرسة المرسلين الاميركيين بالاسكندرية في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٨ في حفلة توزيع الشهادات على الفتيات اللاتي أتممن دروسهن

مقام المرأة في الامة

تقدمت الشعوب التي عرفت مهمة المرأة فعلمتها حتى تبوأت مقامها السامي وتأخرت الامم والشعوب التي جهلت تلك المهمة فهبطت بها من منزلتها الجديرة بها او انها جهلت تلك المنزلة فلم ترقها اليها فظلت هي منحطة متأخرة بتأخر المرأة

ومقام المرأة في كل امة من الامم هو معيار رقي تلك الامة او انحطاطها حتى قال للامارتين « اذا اردتم ان تعرفوا امة من الامم فابحثوا فيها عن المرأة »

فاثينا في عصر هجيتها كانت تعد المرأة متاعاً تافهاً فما تعلمت وترقت تبوأت فيها المرأة مكانها السامي وشاطرت الرجل كل عمل حتى الحروب

ومصر في عهد مدنيتها القديمة الزاهرة تبوأت فيها المرأة عروش الملك وارتقت الى اعلى مقام حتى اطلوها كالرجال النابغين فيهم

والفرس في ابان عزتها رات الملكة اراتامير تقود جيشها مع جيش كسرى في معركة سلاميس حتى قال كسرى فيها « تقدمت الرجال فقروا وثبتت » . وحديث الزباء ملكة تدمر يملأ التاريخ اعجاباً واكباراً . تولت الملك فمدت رواق سلطانها من اطراف الفرات الى اطراف مصر وبنت تدمر فاعلت بناءها وجعلتها عاصمة الشرق كله وقربت العلماء والشعراء والادباء ورعت بالعربية والسريانية والمصرية واليونانية وقادت جيشها حتى قال خصمها القائد الروماني اورليان « خفوا عن الحرب عنها » وقالوا في تاريخ فن الحرب « انها اول من جرد الساقة لحماية الجيش كله باوتاده »

ولا يذكر تاريخ الرومان حتى تذكر كورنيلي ام الغراكوس التي ربت ولديها اليتيمين على اشرف المبادىء وارقاها فانقذا الشعب من العبودية ووضعا اساس المساواة . ولا يكاد يذكر ذانك النابغان تيباريوس وكاكوس حتى تذكر امهما كورنيلي التي امتلأت المتاحف بالتماثيل المرفوعة لها وامتلأت الملاعب بالروايات المؤلفة لبيان فضائلها وفضلها وكيف هدت وربت ولديها وخلد المؤرخون المأثور من اقوالها كقولها لولديها « متى يقلع الناس عن قولهم لي « يا بنت سيبيون — وهو ابوها الفاتح الافريقي المشهور — الى قولهم لي « يا ام الغراكوس ». وهي القائلة لغنية جاءت تفخر امامها بحليها وجواهرها « اما انا — واشارت الى ولديها الصغيرين — فهذه جواهري وحلي »

الاَّ ان تاريخ الامم طافح باعمال المرأة في الامم وتطور رقيها وحياة الامم وتاريخها تكرار وتجديد وحديث النساء التابعات يملأ التاريخ حتى تاريخ الطافح بذكرى العائلات والفقيهات والشاعرات وربات المتاجر والاعمال والسياسة وشؤون الملك. ومنذ سكوتهِ عن ذكرهن كان بدء الجمود ثم الانحطاط

وهذه صفحة الكون مبسوطة امامنا فمن اعلى درجة في سلم الرقي حيث وصلت المرأة الاميركية — وقد رأينا وزيرة المعارف في ولاية كولورادو والعضو في لجنة التشريع الجنائي تخطب في فرنسا باسم بلادها — الى آخر دركة من الجمود حيث وقفت قبائل السود الافريقية — وما بينهما من الدرجات . فتدل على مرتبة كل امة بمكانة المرأة فيها. الاَّ اذا صح ان الهمجية خير من المدنية والجهل خير من العلم . وكل شيء منحط خير من كل شيء سام شريف ؟

واية امة تأخذ باسباب الرقي فترقى بالرجال دون النساء واي جسم من الاجسام الحية والامة جسم حي يكون صحيحاً سليماً اذا كان نصفهُ اشل ضعيفاً ؟ . واي جسم ضعيف يريد السلامة والقوة فيقوي شطراً منهُ ويترك الشطر الثاني ضعيفاً

نهضة الشرق

حقائق ادركناها فاخذنا باسباب الرقي وعرفنا مقام المرأة في الهيئة الاجتماعية فتوسلنا بالمدارس لنصل بالرجال الى المقام العالي ولنصل بالنساء الى مقام الرجال ولنجعل شطري الشعب متساويين حتى يكون بناء العائلة صحيحاً وجسم الامة قوياً سليماً فحفلات المدارس التي تقام اليوم في كل جهة وصوب كهذه الحفلة تملأ نفس الشرقي والمصري خاصة روعة وسروراً . في طول البلاد وعرضها اعياد العلم وفي كل بيت فرح بالعلم والمتعلمين. وفي كل مدرسة يرقى الخطباء المنابر مستحثين الهمم للاستزادة والشعب كلهُ يستصرخ ولاة الامور ويستصرخ المحسنين والمحسنين ليكثروا من دور العلم ويكثروا من التعليم والتهذيب

حقائق ادركناها كما ادركنا ان بيئاتنا وبيوتنا لا تقيمنا من المدارس في امر التربية اذا اقمت الغربيين بيوتهم وبيئاتهم فلحاذ في المدرسة بامالنا وامانينا لتتزين بالعلم الاداب ومكارم الاخلاق وهي اس النجاح

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

فقل للذين يظنون ان معرفة القراءة والكتابة تكفي انكم لفي ضلال مبين

المدرسة للتعليم والتربية

فالمدرسة التي تتحة اليها بامان هي التي « تصوغ الناشيء كما قال باسكوالي قوي الجسم تربه النفس مستقل التفكير عادلاً بالحكم محباً النظام متحلياً بالفضائل والآداب »

واذا علمنا المدارس اللغات — وكل لسان بانسان — فان معرفة اللغات — على ما قال اهن — تمكن الانسان من ان يقابل نفسهُ بسواهُ فيعرف مواطن الكمال من غيرهِ فيتدرج اليها

واذا علمت المدارس الفنون الجميلة فلكي ترق بها العواطف ويدق الاحساس وتهذب النفس فتحب الحسن لذاتهِ على نحو ما قال دانتي « انا اذا عرفنا كل فن حسن جميل بلغنا درجة الكمال واحببنا الجميل لجماله »

وقال ابن خفاجه

فدیتك فاقصد كل شيء حسنهِ وان لم يكن فيهِ ثناء ولا اجرُ

والمدارس التي ترقي الفرد ترقي المجموع وتحكم روابط الاخاء في الامم فهي التي اوجدت بالعلم المساواة فلا سيد ولا مسود . وهي التي قضت بالمساواة في الحقوق والواجبات وجعلت خير الناس انفع الناس وهي التي حررت الامم بعد تحرير العقول واثارة الاذهان حتى سماها اللاتين « المامات » ام الجميع وقال فيها الشاعر العربي

وقرابة الآداب تقصر دونها عند الاديب قرابة الاصهار

شروط توافرت لنا بحمد الله في هذه المدرسة وشبلاتها فالشهادة التي تمنحها اليوم الطالبات لا تدل فقط على تحصيل العلم بل تتعداه للدلالة على تشرب روح الفضائل ومكارم الاخلاق وهي مقدمة على العلم والعلم طريق اليها وهي وحدها تجعل العلم نافعاً

ولبث هذه الفضائل والآداب ومكارم الاخلاق غير هؤلاء المرسلون الكرام واشباههم ممن ذكت نفوسهم وجلت مقاصدهم اوطانهم فاجتازوا اليها البحار وافتحموا الاخطار وجابوا القفار فاذا قيل : هذه مدرسة من مدارسهم فكانهُ قد قيل « هنا مورد العلم والفضيلة والتربية الحسنة » وبالتربية الحسنة تداوي كل امة داء فيها . ومن الحق داءها قتلهُ ومن جهل ذلك الداء لا يجد الدواء فلنبحث عن دائنا لنجد الدواء

لعظة ماضينا

واذا كانت للامم عظة ماضيها وعبرة بحال سواها كان جديراً بنا ان نلتفت الى ماضينا القريب لنتعظ وان ننظر الى سوانا لنعتبر

ترسل نظرنا الى ماضينا القريب فنجد ان المرأة الشرقية عطلت من حلية العلم والتربية الصحيحة فاقتطع بعطلها من قوة الامة نصفها وبات هذا النصف العاطل المقتطع عالة على النصف الثاني . وهو ان الامر وقف عند هذا الحد طبعاً . ولكن هذا النصف المقتطع العاطل هو النصف المربي المهذب . هو النصف الذي يرضع مع غذاء الاجسام غذاء العقول والنفوس وهو النصف الذي يسوغ العقول والنفوس وهي مرنة لطيفة لذلك قال سليمان الحكيم المرأة الكريمة كالدرة اليتيمة ولم يخطىء نابوليون بقوله « ان التي تهز السرير بيمينها تهز العالم بيسارها »

هجر الشرقيون العلم وكرهوا التعليم فعطلت المدارس وضاعت المكاتب ولم يبق لنا من المجد الطارف سوى التاريخ يصف عزة بغداد وعظمة القاهرة وعلوم الاسكندرية وحضارة الشام وروما انطاكية ومجد قرطبة . ويصف العلماء والعالمات والحكماء والفلاسفة والفنون والصناعات . فاذا تلي على مسامعنا بهاء ذلك الماضي المجيد وقد كانت المرأة فيه في مقام الرجال علماً وعملاً اخذتنا هزة الطرب بالذكرى وانطلقت ألسنتنا بالانشاد

اولئك آبائي فجئني بمثلهم
ولكنهُ يخلص الينا من عظة شاعرنا الحكيم

وما الفخر بالعظم الرميم وانما الفخار الذي يبغي الفخار بنفسهِ

وهذا الشاعر الحكيم ذاته يرشدنا الى طريق الفلاح والنجاح بالعلم بقوله

كن ابن من شئت واكتسب ادباً

سلوا اولئك الرجال الذين قعدت همتهم عن العمل . من صنع نفوسهم بطابع الخمول والتكاسل ؟

سلوهم وقد استسلموا الى حكم الاقدار لا لنتائج الاعمال . من ربى نفوسهم على البدع والخرافات ؟

سلوهم وقد جهلوا انفسهم وما حولهم مما خلقه الاله والاجداد من آثار العلم والفن ودلائل الابداع والاختراع

سلوم يحكم لسان حالهم . طي الامم كما شاءت كن . وكما كانت صرفا

سلوا اكثر الاعلاء والنقباء . عمن كان سبب بلائهم وسقمهم . يجيبوكم هي الام الجاهلة من الصحة

واستنطقوا كثيراً من البيوت الكبيرة التي جر عليها الفناء ذيلهُ . من هدم من مبانيك . وحط من معاليك . تجيبكم المرأة الجاهلة تدبير المنزل وسياستهُ

ثم سلوا بعد ذلك الام .من هبط بك الى هذا الانحطاط بالخلق والفهم والمدارك تجيبكم من حرمني العلم والتربية والتهذيب . بل من ارادني في البيت التي فقط لا امرأة ولا ربة ولا معلمة ولا مربية ولا لشيء ممكنت لهُ

واستنطقوا تاريخ اشرق ذاته ابان عزتهِ ومجدهِ وحضارتهِ تجدوا المرأة في المقام الاول.واذا ما استوحيتم ذلك التاريخ قال « اعيدوا الى المرأة الشرقية علمها وادبها وتربيتها . تعيدوا الى الشرق عزته وبهاءه وقوته ومجده »ولعيدوا اليهِ كل شيء حسن حتى شرقيتهُ فلا تكون مدنيتهُ حين ذاك تقليداً وتزويقاً بل تكون خلقاً طبيعياً ومظهراً صحيحاً لانا نطبع عليها صغاراً في حجر الام. فنشب عليها كباراً في حجر الامة

تكفل المرأة الطفل حتى يصير شاباً فيخرج من يديها الى منازع الحياة وكفاحها وجهادها فلا تتسع لهُ الحياة الا لعمل ما تعلم وانطبعت عليهِ نفسهُ.وقد تصلب النفس في الكبر فلا تلين لغير ما طبعت عليهِ في الصغر

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ولا يلين اذا قومتهُ الخشب

المرأة في الحانة والامة

سمعتم احدوثة فوز السلام (١) تتلوها وتمثلها الفتيات الكريمات وكانها اغنية كل نفس وكانها النعماء يتنفسها صدر الانسانية المعذبة بالحروب فهل من فم احق واجدر من فم الفتاة المتعلمة المهذبة بترتيل آيات السلام وبشرى فوزهِ؟

القوا نظرة على هذا الكون وعشرات الملايين من الرجال تتطاحن وتتفانى وفتشوا في جحيم هذه الحروب واتون نارها المتقدة لتجدوا اليد التي تبرد من لظاها انكم لتجدون يد المرأة المهذبة الراقية هي يد الرحمة والعزاء فهي واقفة الى

(١) اشارة الى رواية مشتها الطالبات بفلسطين الانسانية على عرشها وتقدم اليها السلم والحرب خنصرها ووزيرها كل منهما جمهور من الانصار فالتفتها حية انثر فحكمت له فحكمت على الحرب

مضجع الجريح تضمد جروحهُ وتؤاسيه . والى سرير اليتيم واليتيم تكفلهُ وتعزيه . والى جانب الارمل والمعدم تعوله وتكفيه وهذه اليد اللطيفة الفياضة بالرحمة والشفقة والحنان هي في خدمة الوطنية اليد البانية المشيدة . فالروح الوطنية الصحيحة في صدور الرجال من غراسها. بل ان هذه المرأة المتممة الراقية هي التي قامت مقام الرجال في جميع الاعمال يوم نزلوا الى جحومة الميادين للدفاع عن الاوطان

بل دانتا ولذكرى الحروب التي تود الانسانية نسيانها او تناسيها ساعة واحدة لو كان ذلك بالامكان فسلام الفرد وامانهُ وسلام الاسرة وراحتها بيد المرأة كما قال فنلون « هي عون في العمل وملك في المنزل »

اعداء تعليم المرأة

يظن الذين سمعوا صخب الصاخبين لتعليم الفتاة . ان هؤلاء يريدون تعليم الرجل دون المرأة . ولكن هذا الصخب الذي سمعناهُ هو نتيجة الجهل والم الغباوة وقد طوتهما يد العلم والتربية فصار زوالها اتم وصخبا ولغواً ... حتى اذا استؤصل شكا !!

ولو اننا عدنا بالذكرى قليلاً الى الماضي القريب لعرفنا ان الغاضبين اليوم لتعليم الفتاة هم الذين كانوا يغضبون بالامس مع الجهل لتعليم الفتى . فهم هم الذين كانوا يصيحون على اشداقهم. ما لابن الغني والوجيه والكبير والامير وعار العلم و بدعهِ

وهم هم الذين كانوا يقولون ان العلم انما يطلبهُ ابن الفقير ليرتزق من شق القصبة. اما ابن الغني فقد كفاه الله مرة هذا الطلب

وهم هم الذين نعوا على العلماء علومهم وآدابهم ومعارفهم فعدوها خرافات بل بدعاً بالاديان . الى ان رأوا ان الوضيع وقد صار بالعلم رفيعاً . والرفيع وقد بات بالجهل وضيعاً والغني وقد اضاع بجهلهِ غناهُ والفقير وقد اعلى بالعلم مقامهُ فوق مقام سواه . بل رأوا الواسع الجاه العالي المقام وهو بحاجة الى المتعلم وان كان بالامس من خدمة داره وفلاحي عقاره ورأوا فوق ذلك اعراض الامة عنهم وطلبها العلم لابنائها فتياناً وفتيات فخفتت اصواتهم الا همساً لا يزال يتردد حتى الآن في بعض الاذان كالصوت الذي تخطفتهُ الاصداء ولا تزال بقية منهُ باطراف الاجواء

قالوا . لماذا تريدون للفتاة العلم ؟ تريدونهُ لها لتخرج الى الاسواق تبيع وتشتري ؟ تريدونهُ لها لتبتدع وتخترع ؟ تريدونهُ لها لتدير البنوك والشركات

ثم يصيح هؤلاء بملء افواههم . دعوها دعوها في دارها وحجرها . انا نعلم فيرد عليهم . مكانكم حتفاء الجهل واعدته النور والمعرفة . انا نريد هذا العلم لتعرف من هي . ولتعرف انها نصف الامة وانها النصف المربي المهذب اذا تعلمها لتعرف ما لها وما عليها فلا تظل آلية منزلية بل تكون ربة المنزل وعون الرجل في الحياة وعضواً صالحاً عاملاً نافعاً في الهيئة الاجتماعية. اذ تعلمها لتصون الصحة فلا تورث عيون الطفل بالرمد ونوقايته من اصابة العين فتطهيره بالزهر والمكروب مرر عينه وتتمرخ مريضها بالدواء لا بخرق بالية تعلقها ببعض غصون الاشجار ولا يخور بعض العجائز فتعرضه لهلاك والتلف

اذ تعلمها لتسوس منزلها فلا تنفق بغير حساب فتضيع باسرافها وبجهلها الطارف والتليد. انا تعلمها لتعرف ان الله خالقها وانه الفعال لما يريد لا شيطان الزار ولا الغراب والبوم ولا بعض الحجارة

اذ تعلمها لتعلم ما تعمل فلا تكون

كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق

اذ تعلمها حتى اذا احتاجت الى السوق لا تباع فيها مصلحتها وتنافسها جزافاً وحتى اذا سمعت باسم البنك لا تظنهُ غولاً وباسم الشركة لا تتخيلها عفريتاً

الا انا نعلمها فوق ذلك كله لتربي الرجل التوطد اساس الوطن ولتصرخ الامة سليمة من كل عيب

كلمة الى الطلبة

ان هذا الجمع الكريم يحتفي الآن ويحتفل بالطالبات الكريمات اللاتي انهين الدرس وتلقي العلم فليسمح لمن لهُ شرف الكلام في هذا المقام الجليل ان يقول للطلبة الذين لا يزالون على مقاعد المدارس وانتم ان الذين تقدموكم على هذه المقاعد وعرفوا ما تعرفون ثم عرفوا في ميادين الحياة ما سوف تعرفون ودو لو ان لهم نهزة من الحياة ليعودوا الى هذه المقاعد ليكتنزوا لانفسهم ما يزيدهم علماً ومعرفة. اما الذين يغادرون اليوم هذه المقاعد وقد حملوا الى بيئاتهم ومنازلهم العلم والتربية اعاهم سعضو الامة ومعلماتها وهم الامل ومصدر الامل فليوطنوا انفسهم على النضال في سبيل ما تعلموا وليكونوا في بيئاتهم معلمين ومعلمات للفضائل ومكارم الاخلاق فانها لا يزال في بيئاتنا ميدان للنزاع والكفاح ضد التقليد الذي

ولكن النضال الذي بدا منذ عهد قريب قد كلل بالفوز والنجاح لان النور يمحو الظلام والحق يدمغ الباطل وكانت نتيجة هذا الفوز اصلاحاً صحيحاً في حياتنا الاجتماعية تناولت الفرد في عزلته والهيئة بجملتها فانتشرت المدارس وكثرت اعمال الخير والبر وصح تأليف العائلة ومتى تم تعليم المرأة ضمنت الامة لنفسها الحياة الطيبة . قال شريدان « المرأة قيمة علينا فلنوصلها الى درجة الكمال » وانها لواصلة بفضل معلمينا

فضل المعلمين

قيل للاسكندر انك تعظم معلمك اكثر من تعظيمك لابيك فقال ان ابي سبب حياتي الفانية ومعلمي سبب حياتي الباقية

فاذا كان على الامة دين واجب الاداء فذلك الدين هو فضل المعلمين والمعلمات الذين زكت نفوسهم وشرفت مقاصدهم فحملوا الى الشرق تكرماً وتفضلا قبس الحضارة والمدنية . وفي حكم اجدادنا الذين كانوا يقدرون العلم حق قدره « من علمني حرفاً كنت لهُ عبداً »

فليثق اولئك المعلمون والمعلمات الكرام الذين يبارك الشرق من اجلهم من اطرافه الى اطرافه اسم اميركا والاميركيين انهم قد خلدوا لانفسهم وبلادهم في تاريخ الشرق فضلا لا يمحى على كرور العصور والدهور . فالشرق كلهُ يرتل اية حمدهم وشكرهم كما ناجى نفسهُ بتاريخ نهضتهِ وتاريخ تهذيبهِ وتعليمهِ بل انا نشكر هؤلاء المرسلين الكرام باسم ستة آلاف طالب وطالبة من ابناء هذه الامة يتلقون العلم والتربية الصحيحة في كل عام في مدارسهم منذ نصف قرن كامل فلا تنسى مصر ان تكتب اسمهم في لوحة تاريخها بحروف من نور يوم يكتب تاريخ هذه النهضة العلمية المباركة التي تتناول الآن بحمد الله وفضله البلاد بجملتها وانا في ذلك على حكمة اجدادنا القائلين « بالشكر تدوم النعم »

ولا ننسى ولا ينسى احفادنا بعدنا ان لهم في اساس نهضة الشرق الدعامة الكبرى فاذا مررنا غداً او مروا بمعهد من معاهدهم او مدرسة من مدارسهم ومدارس امثالهم من رسل المدنية والحضارة والتعليم والتهذيب قلنا وقالوا :

« هنا كان منبت الاماني والرجاء . وهنا كان مطلع الخير والامل . وهنا كان منبع العلم ومورد الفضائل ومكارم الاخلاق »

داود بركات